فن الحدائق عند العرب [1]

للدكتور سليم عادل عبد الحق

المدير العام للآثار والمتاحف

يظهر أن الدافع الأساسي لإنشاء الحدائق وتنظيمها ، احتياج المرء إلى الاستجمام والالتجاء إلى مكان يتوفر فيه الجمال الطبيعي ، وذلك لأن النفس تستريح إلى مثل هذا الجمال . وغير خاف أن حب الطبيعة عاطفة يجيش بها كل صدر ، وأن كل إنسان يشعر تلقاء المشاهد الطبيعية شعوراً حبيباً تختلف شدته حسب اختلاف الطبائع ، ومقدار الثقافة ، ودرجة الحضارة . وأكبر الظن أن قوام هذا الشعور كما يقول الألماني (يوليوس شولتز J. Shultz) ، امتزاج قوي بين النفس المتأملة والطبيعة المتأمل فيها [2] . كما يخيل أن الامتزاج المشار إليه جزء من اشتراك

---

(١) لهذا البحث قصة غريبة ، فقد كتب ليقدم الى المؤتمر العربي الاول للآثار الذي انعقد في دمشق سنة (١٩٤٧) وقد اتلفت أصوله ، والدراسات التي استخدمت في صوغه إثر الانتهاء من تحريره . وحدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد ضاعت الأوراق التي احتوت صيغته النهائية ، ولم يجد طول البحث عنها فتيلا ، واضطر المؤلف إلى تقديم بحث غيره إلى المؤتمر المذكور . وظل النسيان يغطي بردائه بحث فن الحدائق عند العرب إلى أشهر خلت حيث وجدت صفحاته الضائعة في كتاب لم يفتح منذ ذلك الوقت . وهو الآن ينشر لأول مرة ، ولم يغير فيه إلا عدد قليل من هوامشه .

(٢) آراء هذا المؤلف في علم الجمال الطبيعي مشروحة في كتابه :
J. Schultz, Naturschönheit und Kunstschönheit Zeitschrift für Aesthetik, 1911, VI, 2 .

كل المخلوقات بالحياة العاطفية ضمن وحدة عميقة رائعة تعبر عنها صوفية (ماترلينك Materlink) و (برغسون Bergson) تعبيراً صادقاً ، وتشير إليها المدرسة الألمانية الفلسفية الحديثة بكلمة : (Einfühlung) [١] .

وتبدو هذه العاطفة الطبيعية التي لا يعدل عملها إلا تأثير الموسيقى العميق ، قوية لدى سكان المدن المتحضرين الذين نمت صناعاتهم ، وازدهرت تجارتهم ، وتعقدت حياتهم الاجتماعية وتطور فيهم الفكر الاستقلالي الفردي ، فنشأوا على حب الملاحظة والتدقيق ، ومالوا إلى التعبير عن ميلهم الطبيعي بالإكثار من عناصر الطبيعة حولهم وإدخال مشاهدها في بيوتهم ومدنهم على شكل الحدائق .

ومما تجب الاشارة إليه أن هذه الحالة النفسية قديمة كالحياة . إذ أن التنقيبات الأثرية كشفت على أن أقدم أقوام العالم القديم المتحضرة قد عرفت الحدائق وعملت على نشرها في مدنها . فالمصريون القدماء والبابليون والأغريق والرومان كان لهم جنائن جهدوا في تنظيمها وتنسيقها ، وافتنوا بطبعها بطابع مدنياتهم ، ومثلهم في الجمال ونظرياتهم في الفن . وما حدائق منفيس وجنائن بابل المعلقة ورياض رودوس ، وجنان هادريان في مضايق الآبنين إلا أمثلة مختلفة في عصور متباينة تنم عن ميل فطري عام ، من السهل على المتتبع اكتشاف آثاره لدى كل الشعوب المتحضره من فجر التاريخ حتى عصرنا الحاضر [٢] .

وإذا كان فن الحدائق ككل الفنون « الإنسان مضافاً إلى الطبيعة » حسب تعريف باكون فهو من أتمها وأصعبها وأكثرها تأثيراً وأفصحها تعبيراً ، يلزم لمزاولته تعاون النحات والرسام والمهندس المعماري والمهندس المدني والخبير في الأزهار والنباتات . وفي الحق إن إضافة الجمال الفني إلى الجمال الطبيعي لينشأ عنه سحر عظيم يروع أخيلة كل الناس حتى الذين لا يتأثرون بالجمال الفني الصرف الذي يشعر به الرجل المثقف أمام لوحة زيتية متقنة أو لدى سماعه لحن موسيقي بديع .

(١) وتسمى بالافرنسية : Sympathie symbolique ويوجد في بحث ضاف حول هذا الموضوع في كتاب :
Charles Lalo, introduction à l'Esthétique, Paris, 1935, p. 63 et 5

(٢) للاستزادة في معرفة مبادىء الأقوام المذكورة وغيرهم في فن الحدائق يحسن مطالعة كتاب :
P. Lavedan, Histoire de l'Urbanisme, Antiquité et Moyen âge, paris, 1935 p. p. 40, 75,123, et 220.

فالأشجار المشذبة المتوزعة على كتلات متناسقة ، والأمواه الرقراقة التي تمجها النوافير والجداول التي تجري في أقنية مبلطة ، والتماثيل البادية ضمن اطار طبيعي جميل ، وجبهات العمارات المترائية خلال صفين متماثلين من الأدواح تترك انطباعات عميقة في كل النفوس (١) .

والعرب من الأمم الشرقية التي كان لها ولع غريزي بالطبيعة ، وقد أسهموا في إيجاد نماذج من الحدائق ، كانت لها شهرة عظيمة في القرون المتوسطة . وتغنى بها كتابهم وشعراؤهم وأعجب بها الغربيون ، واستوحوا منها كثيراً من الأصول التي تبنوها في إنشاء حدائقهم . ومازال بعض الحدائق العربية حتى يومنا هذا كجنان العريف في غرناطة وحدائق القصر المشهورة في اشبيلية ، محافظاً على روعته وسحره ومقيماً الدليل على غنى المفاهيم الفنية التي تركتها العبقرية العربية في هذا المضمار .

على أن دراسة الحدائق العربية خلال العصور الطويلة التي امتدت عليها حضارة العرب لا تسهل على مؤرخ الفن اكتشاف قواعد ثابتة يصح أن يرسم بموجبها الخط الذي سلكته في تطورها . فالآثار والمعالم التي تركتها لا يصح الاطمئنان إليها كثيراً ولا تقدم إلا معلومات جزئية عنها لأن الحدائق سرعان ما تتغير إما من نفسها بفعل الزمن أو بحسب اختلاف أذواق أصحابها الذين يتوارثون ملكيتها . وكذلك أوصافها التي نقلها لنا الأقدمون والتي تضيق بها كتب الأدب والتاريخ ، فإنها على الفوائد الجليلة التي يخرج الباحث منها ، لا تكون في غالب الأحيان دقيقة تشبع ما نشعر به اليوم من رغباتٍ واضحةٍ في معرفة تخطيط الحديقة ، واسلوب إنشائها ، والتأثيرات الفنية التي تعرض لها منظموها ، وما أتت به من جديد ، وما تركته من آثار في تطور غيرها من الحدائق .

ومهما يكن فإن الحدائق العربية الأولى في حواضر الجزيرة العربية لم تكن قبل الإسلام على ما بلغنا من روايات ياقوت والبكري والمقدسي وغيرهم ، إلا روضات بسيطة تتخللها النباتات وتسقيها العيون الجواري أو الآبار وترويها أحياناً الأمطار . وكان أصحابها يتوخون من العناية بها لذةً ونفعاً فيفيئون إلى غضارتها في وقت القيظ ويزرعونها بأنواع الأشجار المثمرة

(١) ألمت بهذه الفكرة الآنسة مارغريت شاراجات ، دون أن تبين فرق التأثير بين الجمال الطبيعي والجمال الفني . انظر كتابها :
Mlle Charageat : l'Art des Jardins, Paris, 1930, P. VII

كالنخل والكرم وأشجار الزيتون والرمان والموز والتين . وكانت هذه الحدائق محاطة بجدران من كل جهاتها كحدائق المدينة المنورة وخيبر ، وبساتين الطائف . وهذه الأخيرة هي أشهرها وتنحدر على هضاب قزوان الضاحكة وقد شبهها أحد كتاب الغرب المعاصرين بمناطق الألب والبيرەنه ، وكانت كـ (ريفييرا) لسكان مكة القرشيين يظعنون إليها صيفاً تخلصاً من حر مدينتهم الشديد (١) .

ولا شك أن الحديقة العربية الأولى لم تؤثر كثيراً في نشوء وتوضح صيغة الحديقة الأموية ولا في استكمال قواعدها ولم تترك لها من صفاتها إلا حيطانها التي تجعل منها مكاناً خاصاً .

وفي الحق أن العرب عندما جعلوا رقعة أمبراطوريتهم من سد الصين حتى لحاف البيرەنه ، وبدأ الفن الأموي الأمبراطوري ينمو ويترعرع فتنصهر في بوتقته فنون جميع الأمم التي خضعت لسلطانهم ، صاروا يستفيدون في انشاء حدائقهم من تجارب الشعوب التي سبقتهم في ميدان الحضارة . وأول المؤثرات الفنية التي كان لها أثر في تطور فن رياضهم كانت مباديء الحدائق الرومانية المنتشرة في كثير من بلاد البحر المتوسط .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام إن الرومانيين أنفسهم قد استوحوا كثيراً في تنظيم حدائقهم من معارف الأمم الشرقية التي دانت لحكمهم والتي عرف عنها الولوع بالخضرة والماء . ففي أنطاكية مثلاً كانت سفوح جبل كاسيوس تنحدر حتى نهر العاصي وتغص بالمنازل والعمارات المحاطة بالرياض التي تسيل مياهها الرقراقة وتتشابك أشجارها حول صخورها الجرداء وتكثر أزهارها الجميلة . وكذلك في مدينة الاسكندرية الهلنستية كان الشارع الكبير الشمالي الجنوبي يتألف من طريقين ممهدين يسلكهما المارة وبينهما صف من الأدواح الباسقة الظليلة . وهناك كثير من المدن الشرقية في آسيا الصغرى كان لها أيضاً روضات غناء مشهورة (٢) . فيحسن والحالة هذه أن نُلِمّ بايجاز بالمباديء العامة التي اجتمعت في زمن الرومانيين فألفت فن حدائقهم ، لما لذلك من تأثير متأخر في فن الحدائق العربية . وفي الحقيقة ان الحديقة الرومانية كانت في غالب الأحيان متممه لعمارة مشادة تطل عليها ، وكان يحسن انتقاء موقعها بحيث يتوخى فيها

(١) انظر في وصف هذه البساتين كتاب :
P. L. Lammens, la Cité arabe de Taïf à la veille de l'Hégire - Melanges de l'Université Saint' - Joseph · T. VIII, p. 140 .

(٢) P. Lavedan, Hist . de l'Urbanisme, p. 221 .

دائماً أن تطل على مناظر جميلة كسهل أو نهر أو بحيرة . ثم ينشأ إلى جانبها مسابح وحمامات وملاعب ومسارح ، ونقام فيها مسالك ومعابر مستقيمة تحفها أحواض الزهر المقامة الجوانب والموزعة على أشكال هندسية منتظمة ، وتتناثر في أفيائها برك مرمرية يجري فيها الماء ، وتعرض في جنباتها تماثيل مختلفة ، كما تشاد على أطرافها أواوين تتصل بأحواض الزهر بمنحدرات متطامنة [١] .

ولا ريب أن الأمويين قد استفادوا كثيراً في إنشاء حدائقهم من هذه المبادىء التي كان ما يزال معمولاً بها إلى عهدهم في البلاد الواقعة على شاطىء البحر المتوسط الشرقي . بيد أنهم أضافوا إليها مبادىء أخرى جديدة استنبطوها من أنفسهم ومن نظرتهم الخاصة إلى الطبيعة ، شأنهم في كل النواحي الفنية الأخرى التي آلت إليهم مقاليدها . وكما أن الفن الأموي بصورة عامة ليس هو انعكاساً عن الفنون التي سبقته على الرغم من حذلقة منتقضيه ، كذلك فإن الحديقة الأموية تختلف عن الحدائق التي تقدمتها بأشياء عديدة منها الحرية الواسعة المعطاة إلى الطبيعة للتعبير عن جمال خضرتها ومائها دون تقييدها تقييداً ضيقاً بنظام يفرضه عليها الإنسان .

وما أصدق اوستاش دو لوري لما لاحظ في نزعة الأمويين التصويرية رجوعاً إلى المبادىء التي عرفها الفن الهلنستي في النهل مباشرة من حياض الطبيعة المترعة [٢] . وفي الحق انهم كانوا مشغوفين بالهواء الطلق ومولعين ولعاً شديداً بالرياض يجعلون من العناية بها إحدى لذاتهم الكبرى . وتنظيمهم رياض دمشق لأكبر دليل على ميلهم الفطري وعلى نظرتهم الفنية . فهذه المدينة تبدو من الهضاب التي تحيطها مغمورة بأشعة الشمس الذهبية خلال بحر حدائقها السندسية ذات الظل الظليل والماء السلسبيل والنسيم العليل كما يقول في وصفها أحد المؤرخين القدماء [٣] . وقد فطن ساداتها الأمويون إلى ما في ترك حدائقها تطور حسب مشيئة طبيعتها الجميلة من روعة تفوق كل روعة مصطنعة ، فنظموها تنظيماً يخيل للناظر فيها أنها أجمات متشابكة بديعة تدين بسحرها إلى خالقها ولا دخل لفن الإنسان بها . وتاريخ الفن الأموي يقدم لنا وثيقة ثمينة تمثل الحدائق

---

(١) وكان يوجد في الحديقة الرومانية على ما تراءى لنا في أوصاف الكتاب الأقدمين أعشاش اصطناعية للطير ومسابح للسمك وغير ذلك .

Grimal (p.) les Jardins romains à la fin de la République et aux deux siecles de l'Empire . Paris, 1943 .

(٢) Eustache de Lourey : Ars Islamica, Vol . I. p. 22 et :

« « « : Syria, 1931 p. 326

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة دمشق .

الدمشقية في القرن الأول الهجري أصدق تمثيل ، فالمسجد الأموي بدمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك في سنة (٨٨ هـ - ٧٠٧م) قد زينت أروقته وخاصة رواقه الغربي بمجموعة من الفسيفساء تعد أروع ما انتجه الفن العربي في عهد حداثته ، ومن أجمل الآثار الفنية الغنية بالدروس التي ندين بها للتصوير الأموي . وهي تمثل مشاهد لحدائق الغوطة الغناء (١) يظهر للمدقق فيها أن الحديقة الأموية كانت تلحق بقصور وعمارات تتراءى بين منفرجات أغصان أشجارها ، وأنها كانت تطل على منظر طبيعي جميل كهذا النهر الذي تندفع أمواهه بحركة متسقة منتظمة بين ما يحفه على الضفتين من صخور ضخمة وما يظلله من أشجار السرو والجوز والتين والأجاص والمشمش .

وإلى هذه الصفات التي ورثتها الحديقة الدمشقية عن الحديقة الرومانية تضاف صفات أخرى نراها في هذه الفسيفساء وبعضها ميل الأمويين الغريزي القوي إلى الطبيعة الذي يشبه الميل المعروف بعصرنا باسم الذوق الصيني - الانكليزي في تنظيم الرياض تنظيما يترك لها فيه كل حرية لتمثيل كل ما فيها ، دون ان يفرض عليها تخطيطات هندسية معقدة . فكل شيء فيها حي جميل ، والحياة جميلة عندما يشعر المرء بآثارها ولا يجوز للفنان كما يقول روسكين : « إلا ان يقول كل الحقيقة دون ان يختار ، وانه يجب عليه ألا يتدخل في نظام الأشياء الطبيعية لكي لا يعكر عليها صفاءها »(٢). وكل هذا ظاهر خلال الفسيفساء المذكورة في الدوحة الباسقة التي ترسل اغصانها المتفرعة دون تنسيق وبالأجمة الملتفة حول نفسها دون تهذيب وبالبستان الذي يدور حول قصور رشيقة فتتشابك أشجاره وتتوزع هنا وهناك ازهاره ، وتتصل اجزاء كل هذه المشاهد الطبيعية بعضها ببعض دون نشوز وبصورة تدريجية متلونة بالوان جميلة متناسقة .

ومهما يكن فان هـذه الصورة الرائعة التي تتجلى لنا في فسيفساء دمشق ممثلة الجنائن الدمشقية لاتكفي لإعطائنا فكرة تامة وافية عن الحديقة الاموية التي كانت تنشأ على نماذج

---

(١) يقول فيها اوستاش دولوريه : « إن هذه المواضيع التي صورها صناع الفسيفساء الدمشقيون في القرن السابع الميلادي لم توجد هنا عفواً بل إنها نقل أمين للطبيعة الدمشقية ومحاولة لتصوير مناظرها بصورة واقعية » انظر المصدرين المذكورين سابقاً .

(٢) اقرأ فصل : سراج الجمال في كتاب :

J. Ruskin, les Sept Lampes de l'Architecture, trad. franc .

أخرى تختلف عن النموذج المتقدم . ويتحتم علينا للاطلاع عليها أن ندرس منشآت الخلفاء الأمويين المدنية وهي كثيرة ازدهر بها خاصة القطر الشامي . وقصورهم في البادية كالمشتى وقصير عمرة وخرانة وطوبى هي أروع المنشآت ، ويحاكي بعضها أجمل وأعظم القصور ، وكانوا يقيمون فيها ترويحاً عن النفس وطلباً للصيد والقنص في بعض الفصول (١) ، ولا ريب انه قد كان لهذه القصور حدائق تتصل بها وتؤلف توابع لها ، وعلى الرغم من ان الحفائر الأثرية لايمكنها ان تعطينا الا صوراً باهتة عن هذه الحدائق فان بعض معالمها التي كشفت يمكنها ان توفر لنا ايضاحات ثمينة عن فن الحدائق الأموية .

فحول قصر الحير الشرقي الذي يقع على مسافة ٣٠ كيلو متراً شمال قرية السخنة وعلى مسافة ٧٥ كيلو متراً عن مدينة الرصافة (٢) ، توجد بساتين في طرفي منطقة منخفضة يظهر ان الماء كان يسيل فيها بعد ان يجلب من ينابيع عين الكرم بواسطة قناتين تؤديان الى بحيرة اصطناعية ، طولها خمسة كيلو مترات وعرضها كيلو متران . وما تزال بقايا جدرانها ظاهرة على مسافات ١٣٦٠ ، ٢٠٠٠ ، ١٣٠٠ ، ٧٥٠ متراً . ويظهر من تدقيقها انها كانت مدعومة بالأبراج ، وخارجها مبنياً بناءاً متقناً بالحجر الأبيض ، وداخلها مستوراً بالآجر المشوي ، ويقول فيها كريزويلد ، انها أنشئت خصيصاً لسقي هذه المنطقة التى كانت عامرة في زمن الأمويين تعيش فيها جالية زراعية (٣) ، ويشبهها البير غابريل بما بناه الأغلبيون بالقرب من تونس (٤) .

---

(١) لقد كانت هذه القصور موضوع دراسات كثيرة بلغات مختلفة آخرها باللغة العربية دراستا الزميلين الكريمين : الأمير جعفر الحسني : مجلة المجمع العلمي العربي أيار وحزيران سنة ١٩٤٢ ص : ٢١٤ ، والمرحوم الدكتور زكي محمد حسن . مجلة الكتاب المصرية العدد الثاني من سنة ١٩٤٦ .

(٢) أنشىء أكبر القصرين الذين يقعان في هذا الموضع بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك في سنة ١١٠ هجرية ، ويظهر أن هذا المكان قد أطلق عليه اسم رصافة هشام : (الأمير جعفر الحسني : قصور الأمويين ....ص ٢١٩) .

(٣) Cresweld : Early Muslim Architecture, T. I , p. 324 et s .

(٤) Albert Gabriel, Kasr - el - Heir, Syria . VIII et 303

H. Seyrig. Kasr - el - Heir, Syria, T. XV p. 24

ولحسن الحظ زادت معلوماتنا كثيراً عن الحديقة الأموية التابعة لقصور الخلفاء منذ سنة ١٩٣٦ حيث قامت مصلحة الآثار السورية بحفائر قصر الحير الغربي المشهور الواقع على بعد ٦٤ كيلو متراً عن تدمر للمسافر القاصد دمشق، والذي بناه هشام بن عبد الملك سنة ١٠٨ هجرية [١]. وما تيسر لنا من معارف جليلة طلعت علينا بها دراسة اطلاله في مختلف نواحي الفن العربي في فجر تكوينه يفيدنا في اخذ صورة صادقة أخرى للحديقة الأموية. وفي الحق أنه كان لقصر الحير الغربي حديقة كبيرة مازالت معالمها ماثلة، وهي بعيدة نحو عدة كيلو مترات عن القصر ويقرب شكلها من مستطيل طوله ١٠٥٠ متراً وعرضه ٤٤٢ متراً، وكانت هذه الحديقة محاطة بجدار مرتفع له أساس من حجر الجير، ومدخلان يقع الرئيسي منهما في الجهة الشرقية، ويتألف من بناء مربع له باب على طرفيه برجان جانبيان. ويدخل المرء من الصحراء الى الحديقة خلال دهليز تقوم في نهايته غرفة صغيرة كانت تستخدم على مايظهر لسكن حارس الحديقة. أما المدخل الثاني فقد كان في الجهة الشمالية الشرقية وليس له فخامة المدخل الأول [٢].

هذا واذا كان مر الايام وكر الليالي، وعصف أرياح البادية قد عفت على آثار نباتات وأزاهير حديقة قصر الحير الغربي ومحت مسالكها ومعالمها [٣] فانه يمكننا بالاستعانة بما لدينا من نتائج دراسات واسعة قام بها علماء مشهورون في رياض القصر [٤]، أن نأخذ فكرة عن جهاز أمواهها وكيفية اروائها. فعلى مسافة خمسة عشر كيلو متراً من جنوب القصر يقوم سد حربقة المؤلف من جدار مستقيم البناء كان يمنع مياه بحيرة اصطناعية من الانطلاق، وله ثلاثة منافذ لايرى اليوم غير واحد منها. وتخرج منه قناة مبنية بالآجر المشوي تجتاز السد

(١) أعدنا بناء جزء هام من هذا القصر مع واجهته الأمامية في جناح خاص أفردناه له من المتحف الوطني بدمشق. انظر مقالنا عنه: سليم عبد الحق، إعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق الجزء (١)، المجلد الأول، من مجلة الحوليات الأثرية السورية، الصحيفة (٥) وما بعدها.

(٢) للاستزادة من وصف قصر الحير الغربي يحسن النظر في مقال:

D, Schlumberger, Les fouilles de Kasr el - Heir el • Gharbi, Syria, T. XX, p 195 et 324.

(٣) عثر على بعض جذوع الأشجار في تراب الحديقة، وتبين من فحصها أنها لأشجار التين التي كانت ولا شك مغروسة مع غيرها هناك.

(٤) انظر مقال Schlumberger المذكور سابقاً.

بانحدار عظيم حتى تبلغ سوية الارض . وهناك حفر لها مجرى يقودها الى قرب القصر حيث تنتهي بخزان مربع الشكل يبلغ طول ضلعه الواحد ستين متراً . وكانت تقوم الى جانبه طاحونة على هيئة الطواحين الشامية التي مازالت ترى على شكلها القديم موزعة في انحاء سورية حتى زماننا الحاضر . ثم تنفذ القناة الى الحديقة قرب الباب الرئيسي ، وتتوزع من الخزان خمسة جداول صغيرة أخرى تجتاز الجدار المقابل فتجري على خمسة خطوط مستقيمة وتتفرع منها سواقي أصغر منها على مسافات منتظمة تجري على خطوط مستعرضة قاسمة سطح الحديقة إلى عدد من المربعات المنتظمة . وأخيراً تتجمع كل مياه الحديقة في قناة عرضانية تقودها إلى خارج السور .

وعلى هذا فكما أن قصور الامويين تتشابه في تخطيطاتها وطرز بنائها فأكبر الظن أن حدائقها كانت شبيهة بحديقة قصر الحير الغربي تتممها وتقوم إلى جانبها ويحيطها أصحابها بسور وقاية لها (١) ويزينونها بالأمواه التي تقاد إليها من مسافات قريبة أو بعيدة ، وتتخللها أشجار النخل والأعناب والرمان والأجاص والأزاهير المعروفة ببلاد الشام (٢) . ولا ريب أن الحدائق العباسية الأولى قد تأثرت بها . فالأمواه كانت تساق إلى هذه الحدائق الأخيرة وتؤلف عنصراً هاماً في تزيينها وقد ساعدت على ذلك عوامل الأقليم وطبيعة بلاد الرافدين المائلة إلى الحرارة وحاجة الناس إلى الاستحاطة بالخضرة ، والأقنية التي كانت توجد في العراق ويرجع عهدها إلى الساسانيين ، ساعدت العباسيين على اتمام أفكارهم في علم ري الأرض واستحداث كثير غيرها . وما قصة مبعوث بيزنطة مع أبي جعفر المنصور إلا دليل على أن سوق المياه ضمن أقنية غدا القاعدة الأولى في فن العمران العباسي . فقد نصح الرومي ثاني الخلفاء العباسيين عندما بدأ ببناء بغداد على مخططها الدائري أن يقود إليها المياه وأن يكثر الخضرة في أرجائها لأنه لا بد للناس من الماء لشفاههم ولأن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة ، وكان أن مدت الأقنية وغرست العباسية في بغداد (٣) . ويحدثنا اليعقوبي والخطيب البغدادي عن هذه الأقنية التي كانت تقاد من دجلة والفرات وتنفذ

---

(١) يلاحظ في حديقتي قصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي ضعف في تأثير المبادىء الرومانية في فن الحدائق وانبعاث للتقاليد العربية الجاهلية في طرز إنشائها ، ولعل لوجود القصرين في الصحراء أثراً في ذلك .

(٢) كما رأينا بعضها ماثلاً في فسيفساء جامع دمشق .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٧٨ .

في شوارع المدينة ودروبها وأرباضها وتجري صيفاً وشتاءً . وقد وصف البغدادي في موضع آخر كيف كان منظمو الحدائق يجهدون وينفقون عن سعة في مد الأفنية عندما ذكر الروضة التي أقامها عضد الدولة في دار المملكة التي بأعلا المحزم [١] . فقد كانت هذه الدار تنفتح أبوابها الغربية إلى نهر دجلة وأبوابها الشرقية على صحن خلفه بستان مغروس بنخل وشجر . « وقد صرف عضد الدولة مبالغ طائلة في استملاك ما حولها من الأرض » ، وجهد في انشاء ميدان واسع حول هذا البستان وفي جر الماء إليه . « وقد عمل تلين عظيمين يساويان سطح ماء الخالص ويرتفعان عن أرض الصحراء أذرعاً ، وشق في وسطهما نهراً جعل له خودين من جانبيه ، وداس الجميع بالفيلة دوساً كثيراً حتى قوي واشتد وصلب وتلبد [٢] » .

وكان العباسيون يحسنون اختيار مواقع حدائقهم بحيث أنها تشرف دوماً على مشاهد ومناظر طبيعية جميلة . فقد ذكر المسعودي : « إن المعتصم لما عزم على بناء سامرا « نظر إلى فضاء تسافر فيه الأبصار ، وهواء طيب ، وأرض صحيحة فاستمرأها واستطاب هواءها وأسس قصره بالوزيرية .... ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار . » [٣] . وكذلك المتوكل فقد كان يشرف من قصره الجعفري على الخليج [٤] ، وهذا القصر كان يقع في أرض سهلية جبلية حصاها جوهر وترابها مسك يشاب بعنبر حسب ما زعمه لنا في وصفه أبو علي البصري والبحتري [٥] .

ومما لا شك فيه أن حدائق قصور الخلفاء المشهورة كقصر الجوسق للمعتصم ، وقصر الهاروني للواثق وقصور العروس وبلكوار والمختـــار ، اختيرت مواقعها جيداً ولم يشذ فيها عن القاعدة المتبعة .

وهذه الحدائق العباسية كانت تنظم أحسن تنظيم ويستفاد من خبرة أهل كل البلاد الاسلامية في انشائها . فقد قيل : « إن المعتصم استقدم عندما بنى عاصمته ، من كل بلدٍ من يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخيل والغروس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ، ص ١٠٥ .
(٢) » » » » » » »
(٣) المسعودي : مروج الذهب المطبوع على هامش ابن الأثير . ج ٩ ، ص ٦٦ .
(٤) » » » » » » » ص ١٢٠ .
(٥) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

والعلم بمواضعه من الأرض (١) » . وكان أن نشأ في بلاد الرافدين فن جديد للحدائق استفاد من كل الفنون التي سبقته وأربى عليها بأن جعل الرياض تتجمل بكل مبتكرات الصناعات لكي تصبح مكان راحة وأنس لأناس صقلتهم الحضارة ، فغدت أذواقهم صعبة لا تستسيغ إلا الكمال والترف في كل شيء ، ومن ذلك تزيين الأشجار وتلبيسها بالمعادن الثمينة وزخرفة أقسام الحديقة ونشر الصور والتماثيل في أرجائها .

ونحن ناقلون هنا وصفاً لحديقة قصر المقتدر بالله الجوسق المحدث ، يقرب إلى خيالنا صورة عن الحديقة العباسية . « فقد كان هذا القصر أحد الثلاثة وعشرين قصراً التي كان يقطنها الخليفة ومتصلاً بحديقة تحوي ميادين متعددة غرست بأربعمائة نخلة طول كل واحدة منها خمسة أذرع ، وقد لبست جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمارة محلق من شبة مذهبة ، وبين هذه الميادين يسير نهر رصاصي قلعي يمر على بركة مستطيلة طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً ، وحولها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالديبقس المطرز وأغشيتها ديبقس مذهب ، وإلى جانب هذه الحديقة تقوم دار الشجرة التي تحوي بمنتصفها بركة مدورة في وسطها شجرة قضبانها من ذهب وفضة ، وعليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة أيضاً ، وهي تقف على ثمانية عشر غصناً لها ورق شجر اصطناعية تختلف ألوانه ويتحرك كأوراق الشجر الطبيعية والطيور والعصافير تصفر وتهدر ، وعلى يمين البركة ويسارها تماثيل ثلاثين فارساً في أيديهم مطارد على رماح (٢) » .

. . .

ولم يظهر معنا ، ويا للأسف ، شيء من هذا ، خلال حفائرنا الأثرية التي قمنا فيها منذ سنة ١٩٥٠ ، في المنطقة الأثرية العباسية الواسعة الواقعة خارج سور الرقة القديمة (٣) . وعلى بعد

---

(١) اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٦٤ .

(٢) الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(٣) انظر : الدكتور سليم عبد الحق ، حفريات مدينة الرقة ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، الجزء الأول ، المجلد الأول ، الصحيفة (١٦٢) وما بعدها ، ثم المعرض الأول للمكتشفات الأثرية ، الصحيفة (٢٢) وما بعدها من النسخة الافرنسية ، وكذلك المعرض الثاني للمكتشفات الأثرية ، الصحيفة (٤٦) وما بعدها في النسخة الافرنسية أيضاً . ثم انظر مقال الأستاذ نسيب صليبي ، حفريات الرقة في خريف سنة ١٩٥١ ، المجلد السادس من مجلة الحوليات الأثرية السورية ، الصحيفة (٢٥) وما بعدها .

ثلاثة كيلو مترات شمالي هذا السور ، وإلى ضفة قناة طغت عليها الرمال الآن ، وكانت تتفرع من نهر بليخ ظهرت لنا ثلاثة قصور عباسية من عهد الخلفاء الذين تولوا بعد هارون الرشيد وأشرنا اليها بحرف (ب) و (ح) و (د) لعدم توصلنا لمعرفة أسماء الأمراء أو كبار رجال دولة العباسيين الذين بنوها . ويحوي القصر (ب) وكان مستطيلاً (١٦٨ م × ٧٥ م) داخل أسواره ثلاث حدائق مستطيلة مفصولة عن بعضها بقاعات السكن وأبهاء المرور الموصلة إلى مختلف الاجنحة . أما القصر (ح) فكان مستطيلاً أيضاً (١٦٠م × ١١٧ م) ، ويحوي في غربه صحناً واسعاً جداً وستة بيوت في كل منها باحة وحديقة صغيرة ثم حديقة واسعة جداً في شرقه تمتد على طول البيوت المذكورة . وأخيراً فان قسماً من القصر (د) مازال مطموراً تحت الرمال ، وتقع حدائقه إلى القسم الجنوبي منه . وخلاصة القول ان الحفائر لم تظهر لنا شيئاً عن نظام هذه الحدائق العباسية في سورية ولا عن كيفية مدها بماء القناة التي تمر بقربها والتي أشرنا اليها .

والحديقة المصرية الإسلامية مشهورة ولا تقل شأنا عن الحديقة العراقية الإسلامية . والولوع بالرياض والأشجار غريزي لدى المصريين . وقد ذكر أحد المؤلفين [١] ان الجنائن الخاصة كانت تقوم أحيانا فوق سطوح المنازل وأن تجاراً للأزهار والأشجار المثمرة كانوا يضعونها في أصص على سطوح بيوتهم حتى تصير كأنها حدائق . وزعم ناصر خسرو أنه كان بمصر يهودي مثري قد أقام على سطح داره ثلاثمائة جرة فضية في كل منها شجرة مزروعة [٢] . ويجدر القول في هذا المقام ان المصريين استفادوا من تجارب العباسيين وان فن الحديقة الإسلامية كان من جملة الفنون التي انتقلت من بلاد دجلة والفرات إلى ضفاف النيل في عهد أحمد بن طولون [٣] . وفي الحق أنه منذ قام هذا الأخير يتخذ بلاطاً كبلاط الخليفة في سامرا وبغداد ويحاول أن ينشر مستحدثات المدنية العباسية في مصر ، جعل لنفسه بستانا وافتن في تنظيمه ابنه خمارويه [٤] . وقد نظم بعدهما في عصر آخر محمد بن طغج الأخشيدي بستانا غيره يقع في

(١) آدم متز : الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، مترجم إلى العربية ص ١٨٢ .
(٢) » » » » ص ١٨٣ .
(٣) لقد لخص المرحوم الدكتور زكي محمد حسن بذكاء نظريات العلماء الذين يرون هذا الرأي في كتابه الفن الاسلامي في مصر ، القاهرة ، ١٩٣٥ .
(٤) المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

جزيرة الفسطاط سماه « المختار » وكان يفاخر به أهل العراق (١) . مما يؤيد ماذهبنا اليه في أن الحديقة العباسية الاسلامية كانت معروفة في مصر وأنها أثرت تأثيراً ما في الحديقة المصرية الإسلامية .

بيد أن الحديقة المصرية لم تكن نسخة طبق الاصل عن الحديقة العباسية فقد كان بينهما فروق ترجع إلى اختلاف بيئة مصر عن بيئة العراق ، وتغير المحيط الثقافي الذي نشأت عليه الحضارة المصرية الاسلامية عن المحيط الثقافي الذي عاشت على مبادئه الحضارة العباسية . ففن إنشاء البرك وسوق المياه الى الرياض وتنظيم الفوارات الاصطناعية كان معروفاً أيضاً بأشكال أخرى عند قدماء المصريين ، ولا ريب ان مصر الإسلامية استفادت من تقاليدها الموروثة كما استفادت من انتشار المدنية العباسية في أنحائها خلال عهد بني طولون . ومما يؤسف له أنه لايمكننا تعيين مقدار هذه العناصر المختلفة في الحدائق الاسلامية المصرية ، لافتقارنا الى معلومات اضافية تكمل ماوصلنا اليه من إحاطة في عصرنا الحاضر . ومهما يكن فبستان خمارويه بن أحمد ابن طولون حسب ماترامى الينا عنه في كتب الأدب والتاريخ يمثل إلى حد كبير الذروة التي بلغها فن الحديقة الاسلامية المصرية . وأكبر الظن أنه لم يسمع في تاريخ هذا الفن عن حديقة بلغت من الاناقة وجمال التنظيم مابلغه هذا البستان لأنه جمع كل مميزات حدائق العالم القديم والقرون المتوسطة من مصرية قديمة ، وفارسية ورومانية وعربية . وأول مايجب ذكره عنه أن أحمد بن طولون قد أحسن اختيار موقع بستانه ، فقد كان يشرف منه الناظر على الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة ، وقد أدرك ابنه خمارويه مالهذا الموقع من مميزات فزاد في البستان وضم اليه الميدان الذي كان الى جانبه لاتمام ساحة النظر ولكي تعانق العين جميع مايقع الى جواره من مشاهد طبيعية ساحرة (٢) . ثم بلط أرضه كلها أو بعضها وشق فيها الأنهار والجداول ووزع في أرجائه الفساقي التى تمج المياه البلورية . والتأثيرات العباسية ظاهرة في اقامة أشجار النخل منسقة ومكسوة بالنحاس المذهب الحسن الصنعة . وقد زيد عليها بان جعل مزاريب الرصاص بين النحاس المذهب وأجساد النخل ليجري فيها الماء وينحدر الى الفساقي . واتبع مايشبه سنة الرومان في تزيين الحديقة بتماثيل منحوتة ، فملأ الرواق الذي

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ، ص ٣٢٤ .
(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ١ ، ص ٣١٧ .

يؤدي إلى مجلسه على مقدار قامة ونصف بصور في حيطانه معمولة على صوره وصور حظاياه ومغنياته مزينات بالأكاليل .

وبز خمارويه كل من سبقه من منظمي الحدائق الاسلامية في تأنقه باختيار الأزهار الجميلة النادرة وتوزيعها على أشكال لم يألفها أحد غيره ، ويعزى شغفه بها إلى أصله التركي ، ويقال إنه أهدي إليه روائع من الزهر جلب خصيصاً له من خراسان (١) . وعلى حسب ما بلغنا من الروايات كان البستان مغروساً بأصناف الشجر وأنواع الورد والزعفران والرياحين الموزعة على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة ، بعضها آيات قرآنية ، كان يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة .

ولم يكتف ابن طولون بكل هذه المبتكرات التي أغنت فن الحدائق وفتحت له آفاقاً جديدة ، بل أنه سبق في بستانه العجيب بأعصر طويلة ما هو معروف اليوم بحدائق الحيوانات . فقد سرّح في برج بناه في شقة من الحديقة أصناف القماري والدباسي والنونيات والطواويس والدجاج الحبشي . فكانت الطير تشرب وتغتسل من الجداول الجارية ، وجعل أوكاراً في جوف حيطان البرج لتفرخ فيها الطيور (٢) . أضف إلى هذا كله القبة العالية التي بناها وسماها الدكة وكان يجلس تحتها حيث اقيمت فسقية مربعة طولها خمسون ذراعاً ملئت بالزئبق . وجعل فيها سكك من الفضة الخالصة تربط بها فرش من أدم كان ينام عليها خمارويه فتتحرك بحركة الزئبق .

أما بستان المختار في جزيرة الفسطاط الذي أنشأه محمد بن طغج الإخشيدى فقد كان مسقياً بالجداول والنوافير ، وبقي على شأنه هذا إلى زمن الفاطميين حيث صار منتزهاً لخلفائهم . وكانوا يتوصلون إليه من سراديب وأقباء مبنية تحت الأرض ينزلون إليها من القصر الكبير الشرقي .

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص ١٨٤ .
(٢) ويقال إن الرومان كانوا يتخذون في حدائقهم أماكن خاصة تسرح فيها الطير كما بينا ذلك في ملاحظة سابقة .

وقد بنى المستعلي بالله بجواره لمحبوبته على شاطىء النيل قصراً على شكل غريب دعاه « الهودج » . وقصة هذه البدوية مشهورة فإنها لما قدمت إلى القاهرة صعب عليها فراق ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ، ولا تقبض نفسها ، فبنى لها هذا البناء المشهور وجلب إليه جرناً كبيراً من رخام قطعة واحدة ، ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ، وكان في صورة قاضي الاسكندرية مكين الدين .

★ ★ ★

والحدائق العربية كثيرة لأن معظمها كان ملحقاً بقصور الخلفاء والملوك والأمراء التي انتشرت في كل الأقطار المساهمة بالحضارة العربية ، والمقام يضيق للكلام على حدة عن كل حديقة مشهورة منها . فقد بنى أمراء بني أغلب العباسية والرقادة حول القيروان وكان لهما حدائق غناء [١] . وأنشأ الأمير جعفر في بالرمة بجزيرة صقلية قصر الفوارة الذي ألحقت به روضة جميلة ينحدر إليها الماء من الجبل المجاور ويزينها أبدع تزيين [٢] . وكان لقصر القبة والعزيزة حديقتان رائعتان [٣] . وهناك حدائق مشهورة أنشأها الحفصيون في ضواحي تونس حول أبنيتهم . وقد كان للخليفة المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ميل شديد للحدائق الجميلة والمساكن الفخمة ، ويحدثنا ابن خلدون عن حديقة رأس الطبية حيث كانت نساء حرم الخليفة يذهبن إليها من القصر دون أن يراهن أحد [٤] . وفي عهد المستنصر انشئت مدينة ابي فهر القريبة من تونس ، فيها أجمات وأحواض الزرع تحيط بركة كبيرة كأنها البحر ينتهي إليها الماء الذي كان يقاد إليها من

---

(١) ذكر هذين القصرين ابن الأثير والنويري والبكري وغيرهم . انظر :
Georges Marçais : Manuel d'art musulman T. I p. 40 et 42

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٨٢ .

(٣) هذا القصران وإن كانا قد انشئا بأمر غليوم الأول وغليوم الثاني من ملوك النورمان فانهما عربيان في طرز بنائهما انظر:
Amari, Iscrizioni arabiche de Sicilia, I, 11 et : Storia dei Musulmani, III, 848, 849 .

(٤) انظر : Geoges Marçais : Manuel d'art musulman, T. II , p.p. 551— 552 .

قرطاجنة [١] ، وكان أمراء مراكش ينشئون حدائق على هذا الطراز تتراءى أشجارها في مياه بحيراتها [٢] .

غير أن أجمل الحدائق العربية كانت ولا ريب في اسبانيا . وفي الحقيقة إن الجنائن الأندلسية كانت أروع وأكثر دلالة من كل ما رأينا من الحدائق ، على ما انتجته العبقرية العربية العمرانية في هذا الفن . ويرجع ذلك إلى جمال طبيعة الأندلس الأخاذ وهيام الاندلسيين بالرياض هياما عجيباً وانتشار حب الطبيعة لدى كل طبقات مجتمعهم لا سيما في العصر الذي انحلت فيه السلطة المركزية ونشأت ملوك الطوائف . إذ أن كل ذي ثروة أخذ يسعى لبناء مسكن فخم وسط حديقة غناء ، فغدت الاندلس كلها طافحة بالمنتزهات والجنائن والبساتين وعمت الأزهار والأشجار المدن والقرى ، وصارت ترى في كل أرض يملكها إنسان . وقد ظهر هذا الميل الطبيعي في الأدب الأندلسي فكان قسم عظيم من نثر كتابهم وشعر شعرائهم متسماً بهذه الصفة ، يخيل لمن يقرأه أن الأندلس لم تكن إلا حديقة واسعة ترى فيها ألوان الزهر الزاهية ، وتستنشق اعراف الرياحين وتسمع موسيقى الأطيار وتغطي جنباتها الأشجار التي تركض عند أقدامها الجداول والأنهار [٢] .

وكان الأندلسيون ينشئون على الغالب حدائقهم في سفوح الجبال أو في جنبات الهضاب ، وذلك لكي تكون أقسام هذه الحدائق مدرجة يعلو بعضها بعضاً ، ويتصل أعلاها بالقصر ، حتى يشرف الأمير على منظرها بشكل عام ، وينتهي أسفلها بالمدخل ، بحيث أنها تمكن زوارها من اكتشافها والتمتع بها تدريجياً . وكانوا يقسمونها إلى ساحات مربعات أو مستطيلات أو غير ذلك من الأشكال الهندسية المنتظمة ، ويجعلون هذه الوحدات مستقلة عن بعضها بحواجز مرتفعة أو منخفضة تمنع العين من أن ترى كل أرجائها بآن واحد ، وتهيء للمرء لدى انتقاله

---

(١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) انصح بقراءة الفصل الشائق (الحدائق والبساتين) من كتاب :
Henri Pérès : La Poésie Andalouse en arabe classique au XI Siécle . Paris 1937 .

من قسم إلى آخر لذات ومفاجئات متعاقبة ، تبقي شغفه ، وتنفي ما قد يطرأ على إعجابه من فتور . وكان توزيع المياه فيها يجري على طرق أكمل بكثير من الطرق التي رأيناها في غيرها من الحدائق العربية . فالأمواه كانت تنتقل من بركة إلى بركة بواسطة أقنية مغطاة ، أو جداول مكشوفة تحيط بها النوافير من الجانبين . وكانت تبلط أرضها بالمرمر الخالص ، كما كانت تعمل الفساقي وحافات البرك والأدراج التي تقود إليها من القاشاني الثمين ، فينشأ عن كل ذلك روعة تفوق الوصف عندما تتألق الألوان المختلفة خلال اندفاعات الماء الشفافة . وكانت أحواض النباتات توزع على نظام بديع في أنحاء الحديقة ، وتفصلها عن مسالكها حواجز من الآجر الملبس بالقاشاني البديع . ومما يجدر ذكره أن الأندلسيين كانوا يجمعون في حدائقهم بين الأشجار المخضرة النضرة وخاصة المثمرة منها ، كالسرو ، والبرتقال ، والليمون ، والرمان ، والآس ، والنخيل ، والموز ، والجوز ، والمشمش ، والتفاح ، والكرز ، والكرم ، وبين الأزهار الجميلة الثمينة ، كالورد والريحان ، والبنفسج ، والنرجس ، والأقحوان ، والسوسن والنيلوفر ، وغير ذلك مما كان بعضه يجعل في أصص ترصف حول برك الماء . وأخيراً فإنهم كانوا يجعلون أيضاً بين خمائلهم الكثيفة بعض المقاعد الحجرية أو غيرها ، ويزينونها ، ويزخرفونها ، أو يلبسونها بالقاشاني ، وبذلك يهيئون للجالسين عليها ظلالاً وارفة ، تلعب فيها الأنوار المتسربة خلال الأشجار لعباً له سحر ما بعده سحر [١] .

ولا يخفى أن الحضارة الأندلسية قد استفادت كثيراً من الحضارة الأموية بالشام ، وأن أمويي الأندلس ظلوا أمناء على الفن السوري مدة القرون الطويلة التي شهدت انتشار آثار عبقريتهم المبدعة ، فقد كان بغية امرائهم وملوكهم إعادة مجد وأبهة خلافة دمشق وحمل المشعل الساطع الذي سقط من أيدي آخر الخلفاء الأمويين . ومما يؤيد هذه التأثيرات الأموية

---

(١) اعتمدنا في دراسة الحدائق العربية في الأندلس على الكتابين الآتيين :
Byne (Mildred Stapley and Arthur) : Spanich gardens and patios , New - York, 1928 .
Gromort (G.) : Jardins d'Espagne . Paris, 1923 .

في تنظيم الحديقة الأندلسية أن عبد الرحمن الداخل باني مجد الأندلس، بعدما ابتنى المسجد الجامع وقصر الأمارة في قرطبة، أنشأ مدينة الرصافة منتزهاً له، وأقام بها قصراً حسناً وجنانا واسعة نقل إليها غرائب الغرس وكرام الشجر من بلاد الشام. وكانت اخته أم الإصبع توسل إليه من هناك بالغرائب مثل الرمان العجيب الذي ارسلته من دمشق [١]. وقد أضيفت إلى هذه التأثيرات الأموية، تأثيرات عباسية وبيزنطية ساعدت الفن الأندلسي على بلوغ الذروة التي وصل إليها، وهيأته لأن يحتل نهائياً مكاناً سامياً بين الفنون، وأن يعبر أصدق تعبير عن مدنية من أعظم مدنيات القرون المتوسطة. ويذكر لنا المؤرخون أن عبد الرحمن الناصر لما بنى قصره العظيم في قرطبة وسماه دار الروضة وجلب إليه الماء من الجبل استدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المستنزهات فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة [٢].

وكل هذا لا يضاهي لا من قريب ولا من بعيد حدائق مدينة الزهراء التي اختطها عبد الرحمن الناصر بالقرب من قرطبة في سنة (٣٢٥ هـ – ٩٣٦ م)، ودام انشاؤها نحو ست عشرة سنة وأنفق عليها نحو ثلث جباية الأندلس وجعلها مستنزهاً ومسكناً لجاريته « الزهراء » التي نقش صورتها على بابها. وقد أحرقها البرابرة سنة (٤٠١ هـ – ١٠١٠ م) ولم يبق منها غير حديقتها المتدرجة التي ظلت ردحاً من الزمن ملتقىً لصفوة أهالي قرطبة يقصدونها للتنعم بجمال أشجارها ونضارة مياهها. وما يزال موقع الزهراء المقفر اليوم محافظاً على سحره وروعته فجبال السيراموربنا تبدو باحراجها الخضراء، وتبسط آخر مضايقها على نهر الوادي الكبير، فتهيمن عليه بقمتها المسماة « ذروة العروس »، وتتصل به بسهل متطامن طافحٍ بالمروج السندسية اللامعة. وقد كانت الزهراء تبدأ من السهل وتنتهي عند الجبل، فهي ليست سهلية ولا جبلية، وكانت ترتسم بيضاء بعماراتها ذات الارتفاعات المتباينة على لوحة خضراء قاتمة.

---

(١) المقري: نفح الطيب ج ١، ص ٢٧٧.

(٢) المقري: المصدر نفسه، ص ٢٧١.

وبقي موقع الزهراء مجهولاً حتى اكتشفه العالم الأثري (ريكاردو فالاسكيز بوسكو Ricardo Velazquez Bosco) سنة ١٩١٠ الذي قام بتنقيبات أثرية واسعة أتمها العالمان رفائيل كاستيخون Rafail Castejon وفيلكس هيرنانديز Félix Hernandez) (١) . وقد تبين بنتيجتها أن الزهراء كانت تتألف من مجموعتين من العمارات يقع قصر الخليفة في احداها وكان يحوي في منتصفه صهريجاً مملوءاً بالزئبق ، وأن الحديقة الرئيسية كانت تقع بين هاتين المجموعتين ، وكانت محاطة برواق من الشرق وبجدار من الغرب وبقاعات مربعة من الشمال والجنوب . وكانت مفروشة بأنواع الرخام الأبيض الذي استجابه عبد الرحمن الثالث من المرية ، والمجزع من رية ، والوردي والأخضر من أفريقية ، وكان رخام الحوض منقوشاً بالذهب ، وأتى به من الشام ، وقيل من القسطنطينية . ولها بساتين أخرى موزعة حولها اتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك (٢) .

وحدائق قرطبة التي أنشأها العرب متأثرين بالتقاليد الأموية والعباسية كثيرة ، أشهرها : حدائق العامرية التي نظمها الوزير ابن أبي عامر المنصور على بعد كيلو مترين من الزهراء . وكانت العامرية تحوي ثلاث مجموعات من العمارات بينها ساحة واسعة فيها بركة مستطيلة طولها ٥٠ متراً وعرضها ٣٠ متراً محاطة بنوافير الماء . وحدائق الزاهرة التي أنشأها الوزير المنصور وقد اكتشف موقعها منذ وقت قريب على بعد كيلو مترين من قرطبة في مزرعة (فاللادارس Valla Dares بين متعرجات الوادي ، ودرس الاستاذ كاستيخون Cactejon جدرانها المزينة بالنقوش وبلاطها الأحمر ، ووجد بقايا جدار طويل يمتد منها حتى جسر المنصور من قرطبة . ثم حدائق قصر دمشق الذي لا يعلم اليوم موقعه ، وقد كانت معطرة الارض صافية المياه حسب رواية ابن الاحمر . وأخيراً حديقة الحير التي كانت من أبدع المواضع وأجملها ، فيها صحن مرمره صافٍ يخترقه جدول « كالحية النضناض كل لجة بها كابية قد قوبضت بالذهب واللازورد سماؤه وتآزرت بها جوانبه وأرجاؤه ، والروض قد اعتدلت اسطاره وابتسمت من كمائمها

(١) انظر : Ricardo Velàzquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiriya, Madrid, 1912; Excavaciones en Medina Azzahra, Madrid, 1923 — 1924.
D. Rafàel Castejon et D. Félix Hèrnandez, Excavaciones en Medina Azzahra .Madrid, 1923—1924

(٢) ابن خلدون ، العبر ٤ : ١٤٤ .

وقد وضعت هذه الحديقة تحت تصرف الخواص من الناس يدخلونها للتمتع أزهاره . . . »[١] . وقد وضعت هذه الحديقة تحت تصرف الخواص من الناس يدخلونها للتمتع بمناظرها الجميلة . ولأول مرة في التاريخ العمراني تنظم على هذا الشكل حديقة عامة يدعى الناس للتنعم بها . وأخيراً حدائق الرصافة والعقيق والعقاب ، والجسر ، والجوسق ، والجعفرية وغيرها[٢] ولا سيما حدائق البديع « التي تجمعت بها المحاسن المتفرقة ، تركض فيها خيول النسيم . . . وتصول فيها السواقي والزروع قد حجبت عن الارض . . . . »[٣] .

والمقام يضيق بنا لذكر شهيرات حدائق الأندلس فهي كثيرة ومتوزعة على مدن الأندلس الكبيرة كأشبيلية وقادس وطليطلة وسرقسطة وبلنسية وغيرها[٤] . على أن أعظمها كلها كانت تتدرج في غرناطة حول قصر الحمراء . وهي أجمل ما ابدعته عبقرية الإنسان في كل العصور . ولا ريب أن موقع الحمراء الطبيعي كان له أكبر الأثر في إظهار فاعلية بني الأحمر الفنية في أجمل مظهر . فالحمراء ترتسم في الهواء النقي بأسوارها الوردية المحمرة على مرتفعات السيرا نيفادا التي تعلوها ، وتنبسط بين وادي الدارو ومنحدرات الألبيسين التي لا يعدل روعتها شيء آخر . وقد بدأ ببناء الحمراء محمد الاول بن الأحمر في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي وأتم جميع ملحقاتها خمسة من الملوك تعاقبوا على غرناطة بعده .

وكما بلغ فن البناء الاندلسي في هذه البقعة برشاقته وترفه الذروة التي حلق بها الخيال العربي المبدع ، كذلك كان هنا سوق المياه وتنظيم الحدائق على درجة من الكمال لا توصف . فالامواه الرقراقة تجري في كل مكان من الحمراء ، تنبجس تحت الاروقة ، وتقذفها النوافير في منتصف الغرف ، فترتفع في أرض قاعة الشقيقتين وقاعة ابن سراج ، وتتساقط في الفساقي ، وتركض في الاقنية وتتراءى عذبة براقة في المرآة الطويلة التي يؤلفها الحوض الكبير في وسط باحة البركة والمحفوف من جوانبه بأشجار الآس المنسقة على أشكال تأخذ بمجامع القلوب ، وتلفظها أفواه الأسود في باحة الأسود التي تحوي أربعة أحواض للرياحين والأزهار تفصلها مسالك مبلطة ، وتحيطها أروقة مستورة من جميع الجهات .

(١) نفح الطيب ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٢) انظر ذكر هذه الحدائق في ادب الاندلس في كتاب :

H. Pérès , La poèsie ... p. 115 et s

(٣) نفح الطيب ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٤) H. Pérès المصدر نفسه .

وكل هذا الجمال لا يقاس بجمال جنان العريف التي ما تزال حتى يومنا هذا منبسطة على سفوح سيرو ديل سول المشرفة على الحمراء، ويهيمن عليها قصر صغير بناه يوسف الأول يقال إنه اعتكف فيه هو وذووه على أثر وباء ظهر في ذلك العصر (١). وقد نظمت الحدائق قبل بناء القصر المذكور في القرن الثالث عشر الميلادي بأمر التاسع عشر من سلاطين غرناطة مولاي هاشم، وأتم انشاؤها على يد أبي الوليد اسماعيل (١٣١٤ – ١٣٢٥). وهي تنحدر متتابعة على ارتفاعات متباينة كأنها مجموعة من الحدائق لا حديقة واحدة. وتبدأ بساحة واسعة تنتهي برواقين وفي وسطها جدول ضيق تخرج الأمواه على طرفيه فتتشابك كأنها قضب اللجين، وتلي الساحة الأولى ساحة ثانية تقوم فيها بركة كبيرة مربعة الشكل يتصل أحد أطرافها بشبه جزيرة رباعية في وسطها فسقية مربعة، وتتعاقب الساحات وفي أكثرها نوافير الماء التي تخرج من أفواه الفساقي، وأحواض الزرع المرصوفة على أشكال هندسية منتظمة، والمقاعد الملبسة بالقاشاني الذي يتألق تحت أنوار الشمس كالأحجار الكريمة. وهذه الساحات لا تقع على طرفي محور أساسي بل إنها تتصل بأدراج تقوم على أطرافها وتختلف أشكالها بين كل ميدان وآخر.

• • •

ونختم بحث الحدائق العربية بوصف حديقة رائعة لها شهرة كبرى ما تزال قائمة حتى عصرنا الحاضر، وهي حديقة قصر المبارك في اشبيلية. وقد بنى هذه العمارة الخليفة الناصر من الموحدين نحو سنة ١٢٠٠ م. وعندما استولى الملك فرديناند على المدينة اتخذها سكناً لنفسه، وكذلك فعل ابنه الفونس الثالث عشر. وقد غير في بنائها كثيراً الملك بطرس الفظيع (١٣٥٣ – ١٣٦٤) بحيث أن الفن الذي يرى الزائر آياته فيها الآن هو الفن الاسباني الذي أوجده الصناع المسلمون بعد الفتح النصراني وما يسمونه بفن المدجنين (المدجار Mudejars)، وهو ولا شك من روح الفن العربي الاندلسي ومن إلهامه ولا يفترق عنه إلا بتفاصيل جزئية اقليمية. والحدائق يرجع عهدها كما يقول مؤرخو الغرب إلى عهد بطرس الفظيع الذي استقدم لإنشائها عمالاً من مسلمي طليطلة. وهي تقع بين مسجد اشبيلية المشهور وبين ضفة الوادي الكبير، وتنحدر ساحاتها، كجنان العريف، بدرجات يختلف ارتفاعها بين ٥ – ١٤ س ٠ م بين كل ساحة وأخرى، بحيث

---

(١) لقد غدا هذا القصر ملحقاً من ملحقات الحمراء يسكنه حرم الملك.

يخيل للمتنزه أن منظميها أرادوا أن ينحوه لذاته قطرةً قطرةً . ففي الساحة الأولى مسالك مبلطة بالقاشاني البديع ذي الألوان الزاهية ، وهذه المسالك تتوزع حول فساقي مسدسة الشكل ، وصفت على جنبانها المرمرية أصص الأزهار النادرة ، وأقيمت مساند ومقاعد مبلطة . والساحة الثانية لها شكل رباعي غير منتظم ، طوله ٧٥ متراً وعرضه ٤٥ متراً ، وفيها ثمانية أحواض من الزهر المقصوص على شكل زخارف أندلسية متقدمة على بركة متوسطة ترتكز على درجات . وينحدر المرء من الدرجات المذكورة إلى ثلاث فساقي تتفرع منها ثلاثة مسالك منتهية بنوافير الماء .

ولم يستطع شارلكان عندما حاول أن يكمل ما بدأ به غيره أن يشذ عن هذا الطراز الذي اتبعه الفنانون المسلمون ، فاضطر إلى احتذاء آثارهم واتمامها على نفس الأسلوب الذي بدأوها به . وهكذا بقيت هذه الحدائق على أشكالها العربية الجميلة دون أن تغير فيها شيئاً مبتكرات عصر النهضة التي بدلت كل شيء .

سليم عادل عبد الحق